العربية بين اللغات : رؤية مغايرة

أ.د. سعد مصلوح[1] ,د. بسيم عبد العظيم[2,*]

[1] أستاذ بكلية الاداب جامعة الكويت http://saadmaslouh.com

[2] مدرس الأدب العربى والنقد بكلية الاداب جامعة المنوفية، مصر drbassem@hotmail.com

* التلخيص وترجمة المصطلحات

الاستلام	٢٠١٦/٥/١٣	المراجعة	٢٠١٦/٧/٢٧	النشر	٢٠١٦/٨/٣٠

الملخص

اللغة العربية ومكانتها بين اللغات من وجهة نظر علمية بحتة بعيدا عن العواطف والتحيز الذي شاع قديما وحديثا بين علماء العرب والمسلمين كابن جني والسيوطي ومن لف لفهم حديثا، واعتماد النظرة العلمية في المقارنة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الحية في عالم اليوم من خلال حقل الترجمة وبخاصة ترجمة القرآن الكريم والشعر العربي إلى الإنجليزية والروسية حيث تنتمي الأخيرة إلى حد ما إلى ما يسميه علماء اللغات المعاصرون بلغات النسق الحر، وتثبت المحاضرة تفوق اللغة العربية على غيرها من اللغات بموائز أكسبتها قدرة على استيعاب المعاني والتعبير عنها بطرق مختلفة تؤدي هذه المعاني بدقة لا تضاهيها فيها لغة كالإنجليزية مثلا، أو الروسية، أو غيرها من اللغات.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

Arabic between languages: A different vision

Prof. Saad Maslouh[1] , Dr. Baseem Abd Elazem[2,*]

[1] Professor at Faculty of Arts, University of Kuwait, http://saadmaslouh.com
[2] Instructor of Arabic literature and criticism at the Faculty of Arts, University of Menoufia, Egypt, drbaseem@hotmail.com
[*] Copied and wrote its summary and translation of terminology

Received	13/5/2016	Revised	27/7/2016	Published	30/8/2016

Synopsis

This is a rather terse and devoid of prejudice or compassion lecture about Arabic in relation to other languages from an exclusively academic point of view; a view that was propagated in olden and modern times amongst Arab Linguists and scholars such as Ibn Jinni (941-1002), Ibn Hazm (994-1064), Al-Suyuti (c. 1445- 1505), and their ilk. It relies on a scientific point of view in comparing Arabic and other living languages of today through the field of translation with special reference to the interpretation of the Holy Qur'an and poetry into English and Russian. Arabic belongs to the so called family of free order languages. The talk avers the supremacy of Arabic over other languages. Its merits include those that gave her the capacity to encompass meanings and express them in various ways that make this language unique among other languages such as English or Russian.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

هناك سؤال عام للمحاضرة وسؤال خاص، أما السؤال العام فهو: هل تتساوى الأنحاء، جمع نحو، أو أجهزة القواعد بين اللغات في الإمكانات من جهة تحقيق الوظائف التواصلية تساويا مطلقا، أم أن في الأمر تفصيلا؟ هذا هو السؤال الأول.

السؤال الثاني: ما موقع العربية بين اللغات من هذه الوجهة؟ وإذا انتصرنا لفكرة التمايز ـ على ما نزعمه ـ فما الدليل والبرهان العلمي الذي يجيز لنا أن نقول بهذه المقالة.

للمحاضرة ـ لكي تجتمع الخيوط في أيدينا بشكل محكم ـ أربعة محاور:
المحور الأول: رؤية المتقدمين في قضية تفاضل اللغات.
المحور الثاني: الرؤية المعاصرة التي تعتنقها الاتجاهات اللسانية المعاصرة.
المحور الثالث: كلام في الرؤية المعاصرة التي نزعمها.
المحور الرابع: ننهي المحاضرة بعد التفصيل بشيء من تحصيل الفوائد التي نزعمها لهذا القول.

فأما المحور الأول ـ وهو رؤية المتقدمين- فيلخصها نصان: نص للثعالبي ونص لابن حزم.

أما الثعالبي فيقول في مقدمة كتابه فقه اللغة وأسرار العربية: من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا، صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه؛ اعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، و العرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة.
هذه وجهة نظر.

أما ابن حزم فقد بدأ نصه قائلا: "وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له، لأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة، وقد قال تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)، وقال تعالى: (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون)، فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام. وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية وأنزل الصحف على إبراهيم عليه السلام بالسريانية، فتساوت اللغة في هذا تساويا واحدا، وأما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء في النص والإجماع، ولا نص ولا إجماع في ذلك، إلا أنه لابد لهم من لغة يتكلمون بها ضرورة، ولا يخلو ذلك من ثلاثة أوجه لا رابع لها: إما أن تكون لهم لغة واحدة من اللغات القائمة بيننا الآن، وإما أن تكون لهم لغة غير جميع هذه اللغات، وإما أن تكون لهم لغات شتى، لكن هذه المحاورة التي وصفها الله تعالى توجب القطع بأنهم يتفاهمون بلغة ... فصح أن الله تعالى إنما يحكي لنا معاني كلام كل قائل في لغته باللغة التي يتفاهم بها، ليبين لنا -عز وجل- فقط".

هذا لأن قوما احتجوا بأن العربية هي لسان أهل الجنة لقوله تعالى: (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)، فنقض ابن حزم كل هذه الأدلة، وقال: فلم لا يقولون إنها لغة أهل النار لأن الله تعالى قال: (أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين).
هاتان وجهتان للنظر بالنسبة للمتقدمين.

أما المحور الثاني -الرؤية المعاصرة- فقد كانت انحيازا لرؤية ابن حزم من أنه لا تفاضل بين اللغات ولكن الأدلة غير الأدلة، لأن ابن حزم إنما كان جهده أن ينقض الرأي الآخر بأدلة من جنس الأدلة التي ساقها أصحاب ذلك الرأي.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

ومعروف أن معظم علماء العربية على رأي الثعالبي، وأن ابن حزم يكاد يكون متفردا بهذا الرأي أو يكاد يكون قليل الأنصار فيه.

نأتي إلى جوهر الرؤية المعاصرة، فاللسانيات تقول؛ أو تقريبا معظم الاتجاهات اللسانية تجمع على أن كل لغة أو كل لسان كاف في العبارة عن أغراض أهله، وأنه بذلك لا تفاضل بين لغة ولغة، وهم يقولون إن هناك ما يمكن أن يسمى بالكليات اللسانية (universals) التي تشترك فيها جميع اللغات، فما من لغة إلا وفيها مقولة الإسناد، وما من لغة إلا وفيها مقولة الإضافة، ومقولة التبعية، ومقولة النعتية، وهذا هو الذي ييسر النقل من لغة إلى لغة، لأن المقولة موجودة، وظاهر التعبير عنها والمعجم المستخدم هو الذي يختلف من لسان إلى لسان، أما المقولات الأساسية فهي مقولات جامعة تشترك فيها جميع اللغات، وبذلك تكون كل لغة مكتفية بذاتها لتحقيق أغراض التواصل بين المتكلمين بها.

النتيجة المتوقعة لهذا هو أنه لا أفضلية للغة على لغة، وأن التساوي أمر قار مجمع عليه، وهنا تكمن حقيقة الرؤية المغايرة، التي تحاول هذه المحاضرة أن تقدمها، وهو إقرار التكافؤ في الأصول والتمايز في الفروع.

أبدأ بنقد سريع لرؤية المتقدمين ورؤية المعاصرين في كليمات قليلة.
إن رؤية الثعالبي ـ على سبيل المثال ـ هي ملزمة لأهل اللغة ولمعتنقي عقيدة الإسلام، ولا تلزم غيرهم بحال، أما رؤية المعاصرين ففي نقدها تفصيل.

جوهر الرؤية المعاصرة يقوم على فكرة أن القيام بالوظيفة المنوطة باللغات وهي التواصل ليس وحده هو معيار المفاضلة بينها، وأن اختلاف المباني الصرفية في الفروع واختلاف المباني النحوية، واختلاف المخزون الدلالي؛ موجب لاختلاف مظاهر أداء هذه الوظائف، فالوظائف واحدة نعم، لكن مظاهر أداء هذه الوظائف تختلف، وإذا ضربنا مثلا مبسطا لذلك، فسنجد أن سد الجوع يمكن أن يكون بلقيمات، ويمكن أن يكون بمائدة عامرة، وأن ستر العورة قد يكون بأي شيء وليس بالموضة والأزياء والجمال وغير ذلك، فهذا تحقيق للوظيفة الأصلية، نعم، لكن كيف تتحقق الوظيفة الأصلية؟ ما المكونات؟ وما الأدوات التي تعتمدها لغة من اللغات لأداء هذه الوظيفة؟ هذا هو مناط القول في الموضوع.

من أحسن الكتب التي تكلمت عن موائز العربية كتاب اللغة الشاعرة للأستاذ عباس محمود العقاد، وهو كتاب جميل، وكتاب مختصر جدا ومعجب جدا، لكنه ينحو منحى مختلفا إلى حد كبير عن الرؤية التي أحاول أن أقدم ملامحها هنا.

بالاختصار، يقسم علماء اللغات الذين يتكلمون عن الكليات اللغوية اللغات إلى نوعين:
نوعا يسمونه لغات النسق الحر، ويقابله في الإنجليزية (free order languages)
ونوعا يسمونه لغات النسق الثابت، ويقابله بالإنجليزية (fixed order languages)

هذان النسقان إذا بحثنا عن مكان العربية فيهما فسنجد أن اللغة العربية تنتمي وباقتدار إلى لغات النسق الحر، وهي ليست واحدة في ذلك، فهناك لغات أخرى تنتمي إلى هذا النسق، لكن أول مائزة للغة العربية أنها من أغنى اللغات توظيفا لهذه الحرية بالنسبة للنسق التركيبي الذي تستخدمه، فدرجات الحرية تتفاوت من نسق إلى نسق.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

أنا على علم لا بأس به باللغة الروسية، واللغة الروسية تنتمي أيضا ـ إلى حد ما ـ إلى لغات النسق الحر، لكن حرية النسق في اللغة العربية تتجاوز بكثير درجة الحرية في اللغة الروسية وفي اللغات الأخرى.

هناك عالم اسمه (Tomlin) ألف كتابا عنوانه: (Basic Word Order)، وصل فيه إلى مجموع الأنساق التي تتبعها اللغات المختلفة، وحصرها في ستة أنساق[1]:
هناك ستة أنماط: النمط الأول: اللغة التي يكون نمط الجملة فيها ما يسميه هو (vos)، يعني (فعل ومفعول ومسند إليه)، وهناك (OVS)، (مفعول، فعل، مسند إليه)، وهناك (OSV) و(VSO) و(SVO) و(SOV)، هذه هي الأنماط الجامعة التي توصل إليها (Tomlin) في كل لغات العالم باعتبارها كليات تجمع كل اللغات.
تختلف اللغات بحسب النمط التي تنتمي إليه، وبحسب النمط السائد، لأنه ممكن نجد تنوعات، تجد اللغة الإنجليزية مثلا لا يوجد فيها إلا ما نسميه الجملة الإسمية (SVO) يعني (مسند إليه وفعل ومفعول).

تعالوا لنرى اللغة العربية؛ نجد في اللغة العربية التركيبات الآتية: (زيد عمرا يضرب) (SOV)، و(زيد يضرب عمرا) (SVO)، و(يضرب زيد عمرا) (VSO)، و(يضرب عمرا زيد) (VOS)، و(عمرا يضرب زيد) (OVS) و(عمرا زيد يضرب) (SOV).

معنى هذا أن كل هذه التنوعات الستة موجودة في اللغة العربية، وكل هذا يقابله في اللغة الإنجليزية (Amr Zayed hits)، ولا يوجد بديل آخر بالنسبة للغة الإنجليزية.

طبعا هناك نمط أساسي يسمونه (unmarked) أو غير موسوم، وهناك أنماط فرعية (marked)، وتختلف درجات الشيوع، ومن هنا جاءت فكرة الأصل والعدل.

يعد النمط الأساسي في اللغة العربية بحسب علماء اللغات: فعل وفاعل ومفعول (VSO)، فهو الأصل، وكل ما سوى ذلك تنويعات وتفريعات عن النمط الأساسي.

فهناك ثراء وتنوع في اتساع قواعد الجواز.

والقرآن نفسه أورد من هذه الأنماط الستة أربعة: (وورث سليمان داوود) (VSO)، و(فلما جاء آل فرعون المرسلون) (VOS) و(ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون) (OVS) (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) (SVO).
فلم يغب في تراكيب القرآن من الأنماط الستة إلا نمطان.
وهذان النمطان الآخران موجودان في الشعر العربي وموجودان في كلام العرب؛ لأن القرآن الكريم له طريقته في اختيار ما سلس على اللسان وما يستطيع الناس أن يتلقوه بالحفظ.
هذه مائزة أولى، إذا المائزة الأولى: هي انتماء اللغة العربية إلى النمط الحر في التركيب.
والمائزة الثانية: هي استيعاب اللغة العربية لجميع أنماط التركيب التي هي موجودة في كل لغات الأرض.

---

[1] **سنستخدم المسند إليه بدلا من (المبتدأ والفاعل) لكي لا ندخل في تضاعيف الخلاف التركيبي بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية.**

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

هنا نأتي إلى صياغة أخرى للموضوع، هي صياغة التمييز بين الموقع والموضع، فالموقع الإعرابي ثابت: موقع الفعلية، موقع الفاعلية، موقع المفعولية، موقع الابتداء، موقع الخبر إلى آخره.

والموضع قد يختلف تقديما أو تأخيرا، واللغة العربية فكت الاشتباك بين الموقع والموضع، في حين أن لغة كالإنجليزية التي نعرفها جميعا: الموقع فيها هو عين الموضع، يعني لا تعرف الوظيفة النحوية للكلمة إلا بمكانها من نظم الكلام، وإذا جعلت هذا مكان ذاك اختلف النظر.

نأتي إلى المائزة الثالثة في هذه اللغة: وهي أن فك الاشتباك بين الموقع والموضع أتاح الفرصة لدمج المقصد البلاغي في البنية النحوية؛ لأنه لا تقديم ولا تأخير إلا بقصد، وعلى ذلك لم تسر البلاغة والنحو في اللغة العربية في خطين متوازيين، إنما تعامدا واعتمد كلاهما على الآخر، هذا فيما يتعلق بالبنية النحوية.

بالنسبة للبنية الصرفية فلدينا في اللغة العربية فكرة الاشتقاق، والاشتقاق هو جرثومة المعنى بالإضافة إلى الصيغة، وللصيغ معان كثيرة.

من هنا نجد أنه إذا انتقلنا من المنظور التنظيري إلى المنظور التطبيقي فسأعرض أمثلة سريعة:
قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)، آية الفاتحة، عندما ترجمت، وهذا هو المعيار - أحد المعايير الكاشفة- ترجمها محمد مرمدوك بيكتال

(Thee (alone) we worship; Thee (alone) we ask for help.)

سنلاحظ أنه لكي يفيد مفهوم الاهتمام أو العناية أو الاختصاص -على خلاف بين الأقوال- استعان بعكازة من المعجم، وهو(alone)، في حين أن هذا هو ما أفاده التركيب العربي بذاته (إياك نعبد)، هذا التقديم أفاد المقصد البلاغي بدون الاستعانة بكلمة (alone)، سواء في (إياك نعبد) أو (إياك نستعين)، ونزيد هنا أن (نستعين) أدت طلب العون بالصيغة والاشتقاق، في حين عبر عنها بـ

(Thee (alone) we ask for help).

فلم تعد الصيغة نفسها هي القائمة بتمام الإبلاغ.
المثال الثاني: قوله تعالى في سورة الرعد: له دعوة الحق

(prayer and truth for Him alone is)

وفي قوله تعالى في سورة غافر: (لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (have the curse but they only)، (only) بدل (alone).

والترجمة الروسية تستخدم المقابل المعجمي لكلمة (alone)، (mol'ka) فـ(mol'ka) بمعنى (alone).
آتي بمثال ثالث: (الحمد لله رب العالمين) في سورة الفاتحة، وقوله تعالى في سوة الجاثية: (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين).
كل المترجمين بلا استثناء؛ في كتاب عبد الله يوسف علي والخطيب والحالك وزيدان، ترجموها ترجمة واحدة، ترجموا (الحمد لله)، نفس ترجمة: (فلله الحمد).
وهذا في رأيي دليل ناصع على أن التمييز بين مراتب المعاني التي قام بها التقديم والتأخير بتقنية المقصد البلاغي في البنية؛ قد فات هؤلاء المترجمين، علما بأن الذين يترجمون القرآن يتوخون أقصى درجات الحيطة في دقة النقل.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

وهناك ترجمات للشعر، للمعلقات ولغير المعلقات، وهذا باب واسع من العلم لم يقربه كثير من الباحثين، وهو باب مفتوح، ولكنه يصد عنه الكثير.

آتي للمثال الرابع: قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون)، هنا جرثومة المعنى في (قتل)، وعندي (يقاتلون فيقتلون ويقتلون)، فتقول بعض الترجمات:

(*they shall fight in the way of Allah and shall slay and be slain*)

فما عبرت به الآية عن القتل بالصيغ: (يقاتلون، فيقتلون، ويقتلون)، عُبِّر عنه بأفعال مختلفة، *(fight)* و *(slay)* و*(slain)*

نأتي إلى مثال خامس -وأنا أحببت أن أكثر من الأمثلة نوعا ما على حساب الكلام النظري- قوله تعالى: (أخذوا وقتلوا تقتيلا).

أولا: لا يوجد في الإنجليزية شيء يكافئ المفعول المطلق المؤكد، فكل مفعول مطلق في قوله تعالى: (وفصلناه تفصيلا)، و(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا)، و(ورتل القرآن ترتيلا)، يقابله في الترجمة ترجمة المفعول المطلق إلى مبين للنوع، أما المفعول المطلق الذي يؤكد المعنى ولا يبين نوعه فهذا لا مقابل له على الإطلاق في أية ترجمة، وهذا الكلام أقوله عن علم أكيد، لأني فتشت عددا كبيرا جدا جدا من الترجمات بحثا عن هذه الميزة النحوية الجميلة الموجودة في اللغة العربية، وبحثا عن مكافئ لها في الإنجليزية، والأمر كذلك في الترجمات الروسية؛ حيث رجعت لثلاث ترجمات؛ والترجمة واحدة عندهم جميعا.

نأتي إلى الآية: (وقتّلوا تقتيلا)، ومعنى المبالغة في الصيغة، وكيف عبر عنه المترجمون.

فالترجمة تقول:

(*They will be seized* wherever found and *slain with a (fierce) slaughter*)

أي:(وقتلوا بقتل قاس، بمذبحة قاسية) فستجد أن ما تقعد به البنية ينهض به المعجم، فكل أمر تقعد به البنية في هذه اللغات يحاول المعجم أن يكون هو الطريقة المعتمدة في التوصيل.

نأتي لمثال سادس وأظنه الأخير، مثلا في صيغة الفعل (أمسى) و(أصبح)، فهذا الفعل دال بنفسه على الدخول في وقت المساء وعلى الدخول في وقت الصباح، يقول الله تعالى: (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون)، وليس هذا في القرآن وحده ولكن شعر العرب كذلك، فيقول عنترة مخاطبا عدوه:

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سراة أدهم ملجم

وترجمة بيت عنترة للأستاذ محمود عباس مسعود:

You spend your nights and days on soft beds and comfortable cushions

فلدينا صيغة (أمسى) و(أصبح)، ففي ترجمات مختلفة، - مثلا ترجمة عبد الله يوسف علي- في: (حين تمسو) (when ye reaches eventide) يعني تدرك وقت المساء، وفي (وحين تصبحون) (and when ye rise in the morning)، أي: (وعندما تنهض في وقت الصباح)، وفي: (وحين تظهرون): (and when the day begins to decline.) يعني: (وحين تبدأ الظهيرة في الانحدار أو ما سماه القرآن: (لدلوك الشمس).

وهناك ترجمات أخرى كثيرة، مثل: (When you entered the morning hours)، أي: عندما تدخل في ساعات الصباح.

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

على أي الأحوال أنا أريد أن أبين أنه ما من مترجم اعتمد على جرثومة معنى وصيغة في نقل كلمتي (أمسى) و(أصبح)، وإنما لابد من أن يفكوا الجملة بمثل ما بيناه في الترجمات المعروضة.

علام يدلنا هذا؟ يدلنا على أن ما تؤديه العربية بأصل بنيتها يحتاج عند النقل إلى لغة أخرى إلى عملية فك وصياغة جُمْلِيّة، يستعان فيها بالمعجم وبمفردات المعجم أكثر مما يستعان فيها بالبنية الصرفية أو البنية النحوية.

إذا أردنا تحصيلا لهذا الكلام فأقول: عندما نتكلم عن العربية بين اللغات نقول: نحن مع اللسانيين المحدثين في أن كل لغة كافية لأهلها في توصيل مقاصدهم، هذا أمر لا شك فيه، لكن أدوات التوصيل من حيث البنية ـ سواء البنية على مستوى الصوت أو على مستوى التركيب النحوي- ومن حيث المعجم، وكون العربية تنتمي إلى نموذج النمط الحر الذي يفك الاشتباك بين الموقع والموضع؛ فهذا كه يعطي اللغة العربية ميزة كبيرة في عملية التوصيل.

أقول: في نهاية هذه المحاضرة إننا أمام عدة أمور:

أولها: أن اللغة العربية ـ كما ذكرنا ـ استوعبت تقريبا كل التراكيب الجملية في جميع اللغات، بشهادة علماء الكليات اللسانية أنفسهم.

ثانيا: أن انتماء العربية إلى لغات النمط الحر أتاح لها من الموائز ما لم يتوافر للغة عالمية كالإنجليزية مثلا.

ثالثا: عجز البنى الصرفية والبنى النحوية في تلك اللغات عن نقل المقاصد، زاد من اعتمادها على المفردات المعجمية، التي يحاولون بها سد النقص في عجز البنية عن توصيل ما تريد.

رابعا: اتسعت اللغة العربية لاستيعاب المقصد البلاغي داخل البنية النحوية، وهذا أيضا ما لم يكن متاحا للغات النمط الثابت.

فالاشتقاق صرفا، وحرية النمط نحوا؛ أعطى للعربية ميزة تتمزى بها على سائر اللغات في هذا الباب.

وهناك نتائج أخرى تحتاج إلى جهد كبير جدا جدا من الباحثين. ما هي؟

أولا: إن حرية النسق هي السبب المباشر فيما تتمتع به العربية من ثراء العروض، لأن حرية التقديم والتأخير أنتجت أنماطا من الأوزان، فنحن نعرف البحور الستة عشر، وما يتفرع عن هذه البحور، وإلا ما كان للغة العربية أن تتمتع بهذا الثراء الكبير في الأشكال العروضية والتي لا تتمتع به قطعا اللغات الأخرى، وإلا فلماذا هم هربوا إلى الشعر الحر؟ ولماذا هربوا إلى الشعر المرسل؟ هربوا إلى الشعر الحر وإلى الشعر المرسل لضيق لغتهم عن هذا التنوع، فعندهم حوالي خمسة أبحر تقريبا متوارثة من اليونان إلى اللاتين إلى اللغات الحديثة، الوزن الخماسي Pentameter والوزن السداسي Hexameter إلى آخره، لكن لن تجد لغة تتمتع بهذا الثراء العروضي الكبير إلا لأنها لغة نسق حر.

ثانيا: لن تجد لغة ـ فيما نعلم، وفيما وصل إلينا ـ تتمتع بالقدرة على صياغة القصيد في القافية الموحدة، التي تتجاوز عند بعض الشعراء مئات الأبيات، كما عند ابن الرومي ـ على سبيل المثال ـ الذي وصلت بعض قصائده إلى ما جاوز الثلاثمائة بيت. وفي رثائه لوالدته أتى بهذا العدد الرهيب جدا، دون أن يسقط في عيب سناد التوجيه، لأنها قافية مقيدة، وإن كان سناد التوجيه ليس عيبا، فلم يعترف به لا امرؤ القيس ولا طرفة ولا شوقي ولا غيرهم.

هذه الحرية هي التي أنتجت ما سماه ابن جني، فقيه اللغة العربية العظيم، (شجاعة العربية). فشجاعة العربية مرتبطة بهذا، ولولا شجاعة العربية ما سمعنا بيتا للمتنبي يقول:

حملت إليه من لساني حديقة سقاها الحجى سقي الرياض السحائب

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.

تأملوا التركيب: سقي الرياض السحائب، وأصله سقي السحائب الرياض. فلم يتورع عن أن يفصل بين المتلازمين، المضاف والمضاف إليه، بمعمول المصدر، ثم يأتي بالمضاف إليه متسقا مع القافية.
ولو استقصينا هذا الأمر لكان وحده جديرا بكثير من الأبحاث والدراسات.

أختم - وأنا أظن أني حملت التمر إلى هجر، فهو أقرب إلى البوح منه إلى الإتيان بجديد- فأقول: هل لنا أن نستشرف مستقبلا محكيا تتضافر فيه جهود الباحثين من أبناء العربية لمقاربة خصائصها البلاغية من منظور تقابلي، مستوعب لمسائل الصرف والنحو ومباحث علمي المعاني والبيان، تعيينا للجوامع والكليات بين اللغات، واستظهارا للموائز والفروق، على نحو يزيدنا علما بفقه العربية وخصائصها، ويقنعنا ـ على أساس من التحليل العلمي المنضبط ـ بما لهذا اللسان من طاقات وإمكانات يمتاز بها من سائر الألسنة، ولا أقول عن سائر الألسنة، وإنما أقول يمتاز بها من سائر الألسنة.

وهل لنا ـ في موقف تنبؤ علمي ـ أن نمد أعيننا إلى عقد قريب أو بعيد، تتخلق فيه ملامح مجال معرفي جديد يضع الطاقة البلاغية في لغات كثيرة موضع الفحص التقابلي كشفا عن كليات البلاغة وتصنيفا للغات بحسب أنماط هذه الكليات ومقاصدها؟!

@ 2016 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.